جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: دكتوراه الأدب

المادة: قراءة جديدة في نص أدبي قديم

محاضرة: أليات القراءة في النص العربي القديم

مدرس المادة: أ.د. أسماء صابر جاسم

المحاضرة: الثامنة

١٤٤٥هـ **٢٠٢٤م**

آليات القراءة :

لم يعد النص الأدبى مجرد واحة يُلقى القارئ بجه المنهك على عشبها طلبا للراحة والاسترخاء ؛ بل أصبح هما يلازمه ويلاحقه فلا يستطيع الظفر بثماره إلا بعد لأى، ولم يعد القارئ مجرد مستهلك للنص، بل أصبح منتجا له ومشاركا فيه بصورة أو بأخرى. وقد تقلب النص الأدبي بين مناهج ومذاهب وقرءات كثيرة، فتمحور بين الانطباعية والعقلانية والأخلاقية والعلمية والاجتماعية والتاريخية والنفسية وغيرها حتى استوى عوده وصار علما قائما بذاته على يد مؤسسه (فان ديك)، واستطاع أن يحقق إنجازات باهرة من خلال إسهام بارت وياكوبسون وتودروف وريفاتير بنقدهم الإبداعي وقراءاتهم العميقة للنص. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي ساهم بها كوكبة من الباحثين والنقاد المعاصرين إلا أننا لا نزال نعاني في جامعاتنا وبحوثنا من غياب منهج يمكن أن نتفق حوله في تحليل النص الأدبي. إن أي منهج لقراءة النص ينبغي أن يكون هدفه الأساسى بل الأوحد هو تحليل النص الأدبي في ذاته أى من حيث هو نص أدبى دون أن نفرض عليه تفسيرات مسبقة أو نخضعه لعوامل واعتبارات خارجية. ينبغي أن يكون هدف الناقد هو نقد النص من داخله، والنظر إليه باعتباره عالما مستقلا له منطقه الخاص، وقوانينه المستقلة، وأن يتخلى عن طريقة القراءة (الماضوية) التي تقوم على الشرح والتفسير، وبمعنى آخر فإن الغاية المنشودة التي يسعى الناقد إلى تحقيقها هي الوصول إلى قراءة منتجة تقوم على المنهجية واضعا نصب عينيه أن النص الأدبي " يتشكل في هيكل أو بنية مؤطرة تقوم في أجزاء منها على الإيهام الناشيء عما تشتمل عليه من فجوات أو فراغات على القارئ ملؤها، ولذلك فهو في حاجة دائما إلى القارئ المنتج الذي يكمل هذا العمل ويحققه عيانيا ". إن تلك الإشكالية أو الضبابية الكثيفة التي تحيط بالنص وتحول دون النفاذ إليه يمكن أن تتجلى من خلال هذا المنهج الذي يدعو القارئ أو الناقد إلى أن يقيم حواراً عميقًا ومتجدداً بين مكونات النص بدءاً من أصغر وحداته ومروراً بأبنيته وأنساقه متتبعا هذه الأبنية

في حوارها وجدلها فيما بينها من ناحية ومع غيرها من النصوص الخارجية من ناحية أخرى وصولاً إلى البؤرة الأصلية وسعياً إلى إقامة المغزى الكلى للنص. وينظر هذا المنهج إلى النص باعتباره "ثمرة ناضجة مكتملة تخلقها رؤيا متصلة تعاين الوجود من خلال منظور معقد يصوغه إدراك علاقات التشابه والتضاد بين أشياء الوجود على المستوى المعنوى واللغوى ". إنَّ أي نص أدبى يرتكز في بنائه على مجموعة من العلاقات الدلالية تتجلى بين متوالياته وتتلاحم في بناء منطقى محكم سواء أكان ذلك على مستوى البنية السطحية أم البنية العميقة. وهنا يثور تساؤل إجرائي يفرض نفسه ويتمحور حول طبيعة الآليات المناسبة لمقاربة النص أو التي يتوسل بها الناقد أو القارئ للولوج إلى عالمه إن طرح هذا التساؤل يحيل إلى الإشكالية الدائرة بين المناهج النقدية والمناهج الأسلوبية حيث يتصارع كلاهما حول الاستئثار بالنص ويحاول كلاهما أن يدعى أحقيته بملكيته وتمثيله. وقد يكون من المفيد أن نعرض هنا مثالا لوجهة نظر كل فريق منهما؛ فالدكتور عبد السلام المسدى يبرر اختيار المناهج الأسلوبية المقاربة النص فيقول " إنَّ الأسلوبية لا تتطاول على النص الأدبى فتعالجه إلا ولها منطلقات مبدئية تحتكم فيها إلى مضامين معرفية وعلم الأسلوب يقتضى في ذلك ضوابط العلوم شأنه شأن علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال... فلا أحد منها يقارب النصوص بالشرح أو يكاشفها بالتأويل إلا له مصادراته النوعية". وفي المقابل يرى د. عبد القادر القط أن «الذي يمارسه النقاد حاليا هو نوع من الإلحاح على ظواهر لغوية معينة في تركيب العبارة، في توازن الصور... في تماثلها ... في تضادها، وهذه عند كل النقاد الجيدين.. ليس بالصورة التي تطبقها البنيوية، لكن أى ناقدحصيف في الحركة الأدبية الحديثة كان يلتفت إلى هذا بصورة أو بأخرى، ولكن أن تدخل على النص بهذا المنهج طول الوقت دون اعتبار الشخصية كل نص فأنت أولاً تحكم قوانين قد لا تنطبق كثيراً على كل نص، وقد تنطبق ولكنها تصرفك عن أشياء مهمة في النص» وإذا كان هذا الرأى لا يهاجم المنهج الأسلوبي صراحة فإن ناقداً آخر كالدكتور شكرى

عياد لا يستطيع أن يخفى حيرته وتحفظه على اعتماد المنهج الأسلوبي أساسا لتحليل النص فيقول : «المدخل الأسلوبي لفهم أى قصيدة هو لغتها، هذا مبدأ لا يختلف حوله أي من الدارسين الأسلوبيين، ولكن هذا المبدأ لا يقول شيئًا مهما من الناحية العملية؛ فأنا لا أدرى أمام أى قصيدة : من أين أتى لغتها : آتيها من جهة اختيار المفردات أو الجمل؟ وعلى أى أساس أصنف المفردات أو الجمل، هل يجب على أن أحصيها لأعرف نسبة كل نوع إلى الأنواع الأخرى؟ وما النتيجة التي أطمح في الوصول إليها من وراء هذا المجهود – وهو مجهود شاق ولاسيما إذا طالت القصيدة؟»). ويلخص د. شكرى عياد تجربته العملية في تحليل النص الأدبي فيقول : «لقد حللنا حتى الآن خمس قصائد، ولم تكن طريقة التحليل واحدة بين أي اثنتين منها، ولكننا كنا في أغلب الأحوال نعنى بالأجزاء المميزة من القصيدة، إما بحكم موضعها، كالعنوان أو المطلع، وإما بحكم اختلافها عما يقال عادة في مثل مناسبتها، وإما بحكم مخالفتها للنسق المتبع داخل القصيدة نفسها، وكثيراً ما كنا نجمع بين عدد من هذه الاعتبارات لأن اتباع اعتبار واحد منها قد لا يكون كافيًا لاكتشاف ما نسميه (بؤرة القصيدة أو دلالتها العميقة، والمهم دائماً هو البدء بأبرز السمات اللغوية عساها تضعنا على أول الطريق الصحيح لفهم أسلوبي للقصيدة»). وفي تصوّرى، فإن أية قراءة صحيحة للنص الشعرى يجب أن تقوم على توازن دقيق بين إنجازات البحث الأسلوبي خاصة الأسلوبيات الأدبية – من ناحية، وبين إنجازاتالنقد الأدبى من ناحية أخرى، فكلاهما يكمل الآخر ويُعضده، كما أن إيثار أحدهما على الآخر يفقد القراءة أو التحليل عنصراً هاما من عناصر نجاحه. وإذا كانت المناهج الأسلوبية بآلياتها وإجراءاتها وضوابطها تهيىء المناخ المناسب. للدخول إلى عالم النص، فإن انفراد الأسلوبية وحدها بهذا العبء لا يخلو من مخاطر، خاصة مع تشعب الاتجاهات اللسانية وتنوع أنماطها وطرائقها مما قد يطرح إشكاليات كثيرة في مقاربة النص؛ فالتفات معظم الأسلوبيين إلى الظواهر المائزة في النص يكون رهنا بخبرتهم اللغوية أو الأسلوبية، ولكنه قد يجيىء في الغالب على حساب

استحضار الأسس الجمالية مما يخلق نوعاً من عدم التوازن في معرفة النص اللغوية وغير اللغوية، وهو ما يمثل وضعاً مقلقًا للنقاد باعتراف الدكتور صلاح فضل مما يعد من مظاهر أزمة الشعرية المعاصرة، (٢) فالبحث الألسنى المحدث قد أدرك درجة عالية من التقدم في التعرف العلمي على الأبنية المادية اللغوية للنص الأدبي، في مقابل تواضع معرفة واختبار بقية الأبعاد التصويرية والتخييلية والجمالية المكونة لهذا النص هذه الأبعاد التي تعتبر حاسمة في تحديد خواصه الشعرية»

ومن ناحية أخرى، ففى تصورنا أن فرض اتجاه أسلوبي بعينه على النص يمثل إحدى المخاطر ويضعنا أمام إشكالية أخرى لأنه يحصر النص في دائرة ضيقة؛ فبعض «الأسلوبيين الذين يتعاملون مع جانب واحد من جوانب النص كإحصاء المفردات وحدها، أو أنواع الأنظمة النحوية وحدها يحولون "الأسلوبية" إلى أسلوبية جافة، لأنها حينئذ لا تتعامل إلا مع عنصر واحد لا يقوم بنفسه، ولا يؤدى وحده غاية ذات فائدة دمة. والتعامل مع عنصر واحد من عناصر البناء اللغوى للقصيدة لا يحقق إيضاحاً ولا إضاءة للنص المدروس»). فإذا أخضعنا النص – مثلاً – للأسلوبية الإحصائية وحدها، فإننا نحصره في زوايا وفرضيات ضيقة، كقياس السمات الأسلوبية المشتركة في الاستعمال أو قياس النسبة بين تكرار خاصية أسلوبية وتكرار خاصية أخرى أو قياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أو عند كاتب معين أو قياس التوزيع الاحتمالي الخاصة أسلوبية معينة أو غير ذلك من إحصاءات.